أثرياء سوريا في زمن الحرب

إعداد : خالد التركاوي
باحث رئيسي في مركز جسور للدراسات

جسور للدراسات
JUSOOR FOR STUDIES

دراسة
تموز/ يوليو 2021

جسور للدراسات
JUSOOR for STUDIES

مؤسسة مستقلة متخصصة في إدارة المعلومات وإعداد الدراسات والأبحاث المتعلّقة بالشأن السياسي والاجتماعي والاقتصادي والقانوني في منطقة الشرق الأوسط والشأن السوري بشكل خاص، لمد جسور نحو المسؤولين وصناع القرار في كافة تخصّصات الدولة وقطاعات التنمية لمساعدتهم في اتخاذ القرارات المتوازنة المتعلّقة بقضايا المنطقة من خلال تزويدهم بالمعطيات والتقارير المهنيّة الواقعية الدقيقة.

جميع حقوق الطبع والنشر والنسخ محفوظة لمركز جسور للدراسات – 2021
www.jusoor.co

المحتويات

مقدمة.....4

أولاً: خريطة الطبقات الثرية.....6

1. أبناء آبائهم المترفين في عين العاصفة 7

أ. عقد الازدهار.....7

ب- عقد التأرجح.....7

2. الأثرياء الجدد.. من الصفر إلى القصر.....11

3. الطبقة التقليدية.. تمدد في الخارج.....14

ثانياً: مزيد من الترف في مواجهة الضغوط.....15

1. أعراس وحفلات باذخة.....16

2. مقتنيات ورحلات مترفة.....17

ثالثاً: أثر الحرب على عقارات الأثرياء وسياراتهم.....20

1. العقارات: تحولات تواكب الانزياح الطبقي.....20

2. السيارات: ازدهار استثنائي.....21

خاتمة.....24

مقدمة

تعد نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات من القرن الماضي إحدى أسوء الفترات في تاريخ سورية الاقتصادي المعاصر، حيث ارتفع الديّن العام للدولة إلى أعلى مستوياته، وخرجت رؤوس أموال كبيرة من سورية على خلفية الأحداث الأمنية التي شهدتها تلك الفترة؛ وتصاعد القمع في نفس الفترة.

كما شهدت تلك الفترة تراجعاً في قيمة رواتب موظفي مؤسسات الدولة –التي كانت تتبنى النهج الاشتراكي- بسبب تضخم الأسعار المتصاعد، فقد وصل سعر صرف الليرة السورية إلى 50 مقابل كل دولار عام 1986 انطلاقاً من 4 ليرات لكل دولار في 1980، وهو ما انعكس على الأسعار بشكل كبير.

وساهمت المشكلة بين الشقيقين حافظ ورفعت –الذي خرج على إثرها من سورية حاملاً معه مئات الملايين من الدولارات من موارد الدولة وخاصة من العملات الأجنبية[1] ليسكن ويتملك عقارات فاخرة في كل من لندن وفرنسا وإسبانيا وغيرها من الدول الأوربية- بتشكيل طبقة جديدة من المسؤولين من الذين انتهت أدوارهم، بما دفعهم لإخراج جزء من أموالهم خارج سورية، ليبدؤوا حياة جديدة في قطاع المال والأعمال.

1 ثروات المسؤولين العرب في أوروبا، دي دبليو الألمانية، 30/4/2020: https://bit.ly/2O73Pqd

منذ ذلك الحين، وعلى خلفية ما مر به حافظ الأسد من محاولات لإزاحته عن الحكم بطرق مختلفة، تبنى الأسد قانون "المنصب مقابل الولاء"، وفهم من قَبل بهذه القاعدة أن بمقدورهم التحرك في نطاق منصبهم لفعل كل ما يمكن من جمع أموال وتعيين المحسوبين عليهم حتى لو لم يمتلكوا أي مؤهلات للوظيفة، ما داموا يحترمون هذه القاعدة.

كان معظم من تم تعيينهم في الصفوف الأمامية من الفئات الاجتماعية المتوسطة أو الفقيرة، واستطاع أغلبهم الإثراء على حساب المنصب، وكونوا أرصدة مالية ضخمة تنامت مع الوقت، إلا أنه لم يُسمح لهم بأي حال من الأحوال استثمارها طبقاً لنظام اقتصادي يحاول أن يقيد من حركة "الطبقة البرجوازية" ويسعى لضبطها في إطار ما يخدم توجهاته، ولا يمكن بأي حال أن يتم توسيع هذه الطبقة أو جعل المسؤولين يمتدون نحو مناطق نفوذ أكبر.

وقد قام النظام بفرز سيارات وخدمات أكبر لكبار المسؤولين، وكان كبار الضباط في سورية يعيشون في منازل فخمة نسبياً؛ يحرسها بعض العناصر المجندين لخدمتهم وخدمة أسرهم، بما ساهم في توليد طبقة من الأغنياء الجدد في سورية، عُرفت بطبقة "المدعومين"، وهي طبقة تتماهى ملكيتها الخاصة مع ملكية الدولة، بحيث تتلاشى الحدود بينهما ولا يكاد المتابع يعرف ما يملكونه وما تمتلكه الدولة.

لم تستطع هذه الطبقة فصل ملكيتها الخاصة عن الملكية العامة وإخراجها للعلن لأسباب مختلفة، أبرزها أنه من غير الممكن أن يتم إخراج هذه الأموال في ظل تفاقم الأزمة الاقتصادية لدى عامة الناس، حيث كانت معظم السلع الأجنبية مفقودة من الأسواق، وكانت الأسر تصطف في أدوار للحصول على المواد الغذائية الرئيسية من الجمعيات الاستهلاكية.

كما أن ظاهرة استغلال الطبقة المتوسطة والغنية من السوريين على خلفية اعتقال أبنائهم أو تهديدهم بالاعتقال شكلت مصدر ثروة كبيرة لهؤلاء، خاصة في فترة الثمانينيات ومطلع التسعينيات، مما أدى إلى انخفاض في ثروات الطبقة الغنية التقليدية وارتفاع في ثروات المسؤولين الحكوميين، في ظاهرة انزياح طبقي تدريجي طويلة الأمد.

أولاً: خريطة الطبقات الثرية

كانت طبقة الأغنياء التقليدية التي حافظت على وجودها في سورية آخذة بالتقلص من حيث النفوذ والثراء، إلا أنها بقيت ذات ملكيات واسعة وتحظى بمنزلة اجتماعية مرموقة، حيث بقيت أعمالهم مفتوحة وتُدِرّ عليهم مبالغ طائلة مقابل عدم الانخراط في أي نوع من الأنشطة السياسية.

وفي حالات كثيرة ظهر نوع من التقارب بين طبقة "المدعومين" وطبقة الأثرياء التقليدين الذين تقاربت أنماط حياتهم وسلوكهم لتصل أحياناً للزواج بين أبناء الطبقتين.

مع قدوم بشار الأسد للسلطة خلفاً لوالده، أدار ظهره للاشتراكية التي مكنت مئات الرجال شديدي الولاء لأبيه من الحفاظ على مكتسباتهم من خلال إدارتهم لمعامل ومؤسسات تمتلكها الدولة، وتبنى نظام السوق الاجتماعي، لينزع من أيدي مديري المعامل الحكومية وكبار المسؤولين حصرية احتكار الموارد، ولكنه على جانب آخر أعطى الفرصة لأبنائهم للحصول على استثمارات في مختلف القطاعات التي سمحت القوانين الجديدة بالعمل ضمنها. وهكذا، باتت سورية مفتوحة أمام طبقة جديدة من الأثرياء الذين يجمعون بين المال والنفوذ دون أن ينهوا الطبقة "البرجوازية" التقليدية المتحالفة مع الأسد، والتي بدأت تتسع بشكل أكبر في عهد الأسد الابن، الذي بات أكثر حرصاً على وجود هؤلاء في سورية.

بعد آذار/مارس 2011، ظهر أثرياء جدد على خلفية الحرب، منهم من استغل الفراغ الناتج عن خروج عدد كبير من التجار من السوق ليحقق مكاسب، ومنهم من مارس التجارة بمخلفات المنازل المنهوبة التي هجرها أصحابها، كما عمل بعض رجال الأعمال الجدد على تسهيل العلاقات التجارية بين مناطق النزاع، محققين ثروات طائلة.

وهكذا، تشكلت طبقة الأثرياء الراهنة في سورية باجتماع ثلاث فئات؛ هي البرجوازية الثرية التقليدية في سورية، و"أبناء آبائهم من المسؤولين والضباط"، ورجال الأعمال الصاعدين على خلفية الأحداث الأخيرة.

01 أبنـــاء آبائهـــم المترفـــين في عين العاصفة

أ. عقد الازدهار

تقاسم "أبناء آبائهم" الكعكة بشيء من التنافس، لكن في إطار سلطة الأسد التي تُنَعِّم حدية هذا التنافس وتضبط الإيقاع[2].

برزت في قطاع الإعلام على سبيل المثال أسماء لامعة مثل أكثم دوبا، ابن أسرة علي دوبا رجل المخابرات الأول في عهد الأسد الأب.

أدار أبناء علي "صحيفة سوريانا الاجتماعية" و"صحيفة الرياضية" التي احتكرت مجال الإعلام والإعلان الرياضيين على شكل صحيفة ولوحات إعلان طرقية، وكذلك شاركهم في القطاع مجد سليمان ابن الضابط والسفير بهجت سليمان، الذي أسس "المجموعة المتحدة للنشر"، إضافة لأسماء أخرى منها أيمن جابر صهر آل الأسد، وسليمان معروف ابن أخت محمد ناصيف رئيس فرع الأمن الداخلي، وكلاهما –إضافة لآخرين- استثمرا في "قناة الدنيا"[3].

استثمارات هؤلاء الشباب بدأت فعلياً في عهد الأسد الابن، أي بعد عام 2000، وطيلة السنوات السابقة استطاعوا أن يحصدوا ثروات ضخمة عمادها الرئيسي قدرتهم على الوصول إلى الرُّخَص قبل أي أحد آخر، وقدرتهم على تعديل القوانين، وامتلاكهم القدرة على حل أي مشكلة يمكن أن تواجه أعمالهم التجارية من خلال شبكات العلاقات الموروثة من الآباء.

ب- عقد التأرجح

جاءت الاحتجاجات الشعبية في عام 2011 لتقطع ازدهار أعمال هؤلاء، فسخّر هؤلاء جميع إمكاناتهم من أجل الدفاع عن النظام الذي هم جزء منه بطبيعة الحال. فأيمن جابر -مثلاً- حوّل معمل الصلب والحديد الذي بناه في اللاذقية تحت عنوان "الشركة العربية لدرفلة الحديد" -وهو معمل بإمكانيات ضخمة- لصالح الجيش والقوات الرديفة، فأصبح المعمل أهم منتج للبراميل المتفجرة وحشوات الهاون[4]. كما شكل الرجل ميليشيا "صقور الصحراء" التي تزعمها محمد جابر أخوه، إضافة لتمويل ميليشيا "مغاوير البحر". وقد تم صرف مبالغ ضخمة على هذه الميليشيات من حيث التجهيز والتمويل، حيث بلغ عديدها قرابة خمسمائة شخص من ضباط وعسكريين قدامى يتلقون رواتب عالية نسبة إلى غيرهم من الميليشيات.

أما مجد سليمان[5]، فإضافة لدعمه ميليشيات "الدفاع الوطني" في سورية، ومساهمته في بعض الجمعيات الخيرية التي تعين أسر قتلى الجيش، فقد كرس ثروته، بالتعاون مع شريكه بشار كيوان،

---

2 النخب الاقتصادية في سوريا، SYRIA UNTOLD، 24/9/2016: https://bit.ly/3lYkkRX

3 خارطة الإعلام في سوريا، المركز السوري للإعلام وحرية التعبير: http://bit.ly/37H7imf .
كذلك: من هم حيتان الإعلام في سوريا، زمان الوصل، 3/12/2015 https://bit.ly/2PxrwIO

4 رجل في الأخبار، عنب بلدي، 1/6/2018 https://bit.ly/31mzNSo

5 مجد سليمان.. صبي المخابرات، صحيفة اقتصاد، 3/2/2017 https://bit.ly/2NY3fuS

لتحسين صورة الأسد في بعض الصحف العربية والأجنبية، كما انبرى أخوه حيدرة سليمان للدفاع عن النظام من خلال تمويل ميليشيات، والظهور العلني مهدداً المنخرطين في الحراك المعارض، لكونهم اقتربوا إلى مساحات تخص هذه الطبقة وبدأوا بالتأثير عليها.

فيما بدا أن أكثم دوبا أقل المنخرطين في دعم الميليشيات، ربما بحكم علاقة عائلة دوبا نفسها بالأسد الابن، حيث وجه دعمه لجمعيات إغاثة لرعاية جرحى الجيش والميليشيات الأخرى الموالية، مثل "جمعية سنابل" و"جمعية إيثار" وغيرهما.

هذه الأعمال وفرت ملايين الدولارات لهؤلاء ومكنتهم من الارتقاء في سلم الغنى نتيجة لأرباح ومكاسب عالية تأتي من خلال رؤوس أموال يمتلكونها وعلاقات عامة ونفوذ في مؤسسات الدولة، إضافة إلى قدراتهم على فتح الطرقات أمام أي عوائق محتملة في الأسواق المحلية.

فهمت هذه الطبقة أن الحراك المعارض يستهدف مصالحها بشكل مباشر، حيث حملت مطالب المحتجين شعارات تنادي بالمساواة والعدالة الاجتماعية وتوزيع الثروات، لذا انبرى هؤلاء مدافعين عن النظام ومكاسبهم بكل ما أوتوا من قوة. والمفارقة أن نظام الأسد قيّد من قدرات بعضهم في الوصول إلى الثروة، واعتقل بعضهم الآخر وصادر ثروته، كما في حالة أيمن جابر ورامي مخلوف وعدد آخر من رجال الأعمال الصاعدين، مما يثبت أن ثروات هؤلاء لم تكن إلا جزءاً من ثروة النظام بوكالة تشغيل وإدارة من قبلهم، مقابل السماح لهم ولأبنائهم بالتنعم بها، فيما بقيت عائداتها الضخمة في سلة النظام

يعد أبناء اللواء بهجت سليمان، الضابط في الجيش السوري ومسؤول الفرع الداخلي في عهد الأسد الأب وسفير سورية في الأردن في عهد الأسد الابن، من أبرز المنتمين إلى قائمة "أبناء آبائهم"، وكان لهم نشاط وحضور واضح بعد عام 2011. عمل كل من مجد وحيدرة سليمان بالدرجة الأولى في مجال الإعلان والنشر من خلال عدة شركات في الكويت ولبنان وسورية. ويعتبر حيدرة صاحب ما أطلق عليه "مسيرة الهمرات" في دمشق مطلع 2012، والتي سيرها بسياراته من نوع "هامر" الأميركية[6] المعروفة، والتي يقدر سعرها بحوالي 250 ألف دولار أميركي. وكانت المظاهرة تحتوي على خمس سيارات من هذا النوع على أقل تقدير، إضافة إلى سيارات فارهة أخرى لا تقل بذخاً.

أما حياة أبناء رامي مخلوف والجيل الثالث من أسرة مخلوف، فهو مليء بالصخب والحماس والرحلات، حيث يمتلك الأبناء طائرتهم الخاصة من نوع "سينيسا 680" التي تتراوح تكلفتها بين 15 إلى 18 مليون دولار أميركي. كما يمتلك الابن الأكبر لرامي مجموعة من ست سيارات فارهة تصل أسعارها إلى 2 مليون دولار أميركي، إضافة إلى امتلاكه لقصره الخاص في دبي، وتقدر قيمته بمليون ونصف المليون دولار أميركي[7]. واشتهر عن محمد مخلوف رحلاته ونشاطاته السياحية التي يظهر فيها الرفاه والبذخ وأسطول السيارات في كل بلد يزوره.

كذلك الحال بالنسبة لأبناء وزير السياحة محمد رامي مارتيني، رصين ورضوان، اللذين يتحركان بموكب من سيارات فخمة مع مجموعة كبيرة من المرافقة المسلحة والممولة من حساباتهم.

وعرف عن وزير الصحة نزار يازجي أنه وزير بـ13 سيارة لخدمته وخدمة أسرته، حيث كان أسطول سياراته يتألف من أنواع فخمة كـ"ليكزس" و"مرسيدس" و"رانج روفر" وغيرها، وتم تخصيص أربعة منها لصالح زوجته وأبنائه[8].

وفيما يلي نبين أبرز الفاعلين في هذه الطبقة.

---

6 للثورة فضل على حيدرة، زمان الوصل، 2/2/2015 https://bit.ly/38oPQSU

7 صور متداولة على تويتر نشرها محمد مخلوف في حسابه على إنستغرام لكنه حذفها لاحقاً، 18/7/2019: https://bit.ly/3avyA0M

8 بسيارات فارهة ومواقف ساخرة، عنب بلدي، 25/3/2020: https://bit.ly/31qXhWs

أسماء أبرز رجال الأعمال من أقرباء المسؤولين ونسبة القرابة

فارس شهابي

- **المسؤول:** العماد حكمت الشهابي: رئيس هيئة أركان الجيش في عهد الأسد الأب، وهو خال فارس.
- **محافظة المولد:** حلب
- **مقر أنشطته:** سوريا
- **رأس المال المقدر:** 400 مليون
- **ملاحظات:** عضو مجلس شعب. لديه استثمارات في الصناعة أبرزها شركة "ألفا للأدوية".

مجد وحيدرة سليمان

- **المسؤول:** اللواء بهجت سليمان: مسؤول فرع الأمن الداخلي في عهد الأسد الأب وسفير سابق، وهو والد مجد وحيدرة.
- **محافظة المولد:** اللاذقية
- **مقر أنشطته:** لبنان، الكويت، سورية
- **رأس المال المقدر:** 500 مليون
- **ملاحظات:** يعمل في مجال الإعلان والنشر بالدرجة الأولى.

سليمان معروف

- **المسؤول:** محمد ناصيف: رئيس فرع الأمن الداخلي في عهد الأسد الأب، وهو خال سليمان.
- **محافظة المولد:** حماة
- **مقر أنشطته:** بريطانيا، سورية
- **رأس المال المقدر:** 600 مليون
- **ملاحظات:** استثمارات عامة، شريك في معظم البنوك السورية وقناة "الدنيا/ سما".

أكثم وسامر دوبا

- **المسؤول:** العماد علي دوبا: رئيس الاستخبارات العسكرية في عهد الأسد الأب، وهو والد أكثم وسامر.
- **محافظة المولد:** اللاذقية
- **مقر أنشطته:** سوريا
- **رأس المال المقدر:** 100 مليون
- **ملاحظات:** الإعلام وأبرز شركاتهم "الرياضية"، "زحل"، "كواليس".

خلدون مخلوف

- **المسؤول:** العميد عدنان مخلوف: قائد الحرس الجمهوري في عهد الأسد الأب وقريب أنيسة مخلوف زوجة الأسد، وهو والد خلدون.
- **محافظة المولد:** اللاذقية
- **مقر أنشطته:** سورية، الإمارات، روسيا،
- **رأس المال المقدر:** 200 مليون
- **ملاحظات:** العقارات والاستثمار السياحي.

رامي وإيهاب مخلوف

- **المسؤول:** محمد مخلوف: شقيق أنيسة مخلوف والدة بشار ومدير "السورية للتبغ"، والد رامي وإيهاب.
- **محافظة المولد:** اللاذقية
- **مقر أنشطته:** روسيا، أوروبا، سورية، الإمارات
- **رأس المال المقدر:** 1.5 مليار
- **ملاحظات:** استثمارات عامة وأبرزها الاتصالات والتبغ.

أمجد دوبا

- **المسؤول:** العميد محمد دوبا: عميد سابق في الجيش السوري ورئيس شركة تخزين النفط، وهو والد أمجد وشقيق العماد علي دوبا.
- **محافظة المولد:** اللاذقية
- **مقر أنشطته:** سورية، روسيا
- **رأس المال المقدر:** 40 مليون
- **ملاحظات:** مواد غذائية، خشب ومواد بناء.

مازن مرتضى

- **المسؤول:** هاني مرتضى: وزير التعليم العالي وطبيب آل الأسد، وهو والد مازن.
- **محافظة المولد:** دمشق
- **مقر أنشطته:** سورية، كندا
- **رأس المال المقدر:** 100 مليون
- **ملاحظات:** الورق، التأمين والسياحة.

خالد قدور

- **المسؤول:** ناصر قدور: وزير الدولة للشؤون الخارجية في عهد الأسد الأب، وهو والد خالد.
- **محافظة المولد:** حلب
- **مقر أنشطته:** لبنان، سورية
- **رأس المال المقدر:** 100 مليون
- **ملاحظات:** الصناعات الثقيلة

سليم دعبول

- **المسؤول:** محمد ديب دعبول: مدير مكتب حافظ الأسد،وهو والد سليم.
- **محافظة المولد:** ريف دمشق
- **مقر أنشطته:** سورية، دول شرق أوروبا
- **رأس المال المقدر:** 200 مليون
- **ملاحظات:** استثمارات في التعليم، السياحة، والتجارة.

رضوان ورصين مارتيني

- **المسؤول:** محمد رامي مارتيني: وزير السياحة في حكومتيْ عماد خميس وحسين عرنوس، والد رضوان ورصين.
- **محافظة المولد:** حلب
- **مقر أنشطته:** لبنان، العراق، سورية
- **رأس المال المقدر:** 50 مليون
- **ملاحظات:** السياحة

هكذا، نجد أن جميع الأمثلة في الجدول رقم (1) انخرطت حتى آخِر رمق في دفاعها عن النظام وعن مكتسباتها، رغم أن النظام أزال بعضهم من القائمة وجرَّده من ممتلكاته، إما لتقصيره بإتمام المهمة، أو للشك بأنه بدأ يميل نحو تأمين نفسه في أعمال خارج سورية، نائياً بنفسه عما حصل. ومن أبرز الأمثلة على ذلك رامي مخلوف والصراع الحاصل بينه وبين الأسد، وكذلك أيمن جابر صهر عائلة الأسد الذي استُبعد كلياً من المشهد، وغيره كُثْر. وقد حلَّ بشكل كبير محل المستبعَدين رجال أعمال آخرون ممن ظهر على خلفية الحرب وتمتع بمزايا وقدرات أكبر في خدمة قضية النظام.

اللوحة "بوب آرت" التي اشتراها بشار الأسد لزوجته أسماء الأخرس

02 الأثرياء الجدد.. من الصفر إلى القصر

أفرزت الحرب طبقة جديدة من رجال الأعمال، من خلال ممارسة نشاطات أكثر نضالاً وكلفة، وهؤلاء بدا أنهم يشكلون منافساً حقيقياً لشباب النظام الذين حققوا مكاسب ضخمة في مرحلة ما قبل 2011. المنافسون الجدد لا ينتمون إلى طبقة رجال الأعمال التقليدية، ولا إلى طبقة الأبناء الذين استفادوا من سلطة الآباء لتحقيق مكاسب اقتصادية. لقد ساهمت ديناميكيات الحرب في إرساء دعائم صعودهم المتسارع، وسمحت لهم براغماتيتهم باستغلال الظروف للتقدم نحو تحقيق مكاسب ضخمة. فقد قاموا بأعمال خَطِرة نسبياً وبنوا شبكة علاقاتهم الخاصة من الصفر. بعضهم استفاد من مواقع مدنهم أو قراهم على خطوط النار، وبعضهم الآخر من عشيرته أو أسرته، فيما بذل آخرون جهداً كبيراً بأنفسهم لتحقيق هذه المكاسب.

ومن هؤلاء -على سبيل المثال وليس الحصر- علي مهنا، الذي كان عاملاً بسيطاً قبل 2011، ثم قاد مجموعة صغيرة من أبناء قريته لتقوم بعمليات خطف وسرقة، إضافة إلى التعاون مع إدارة المخابرات الجوية في قمع المظاهرات بطرطوس وبانياس[9]. وتطورت مجموعته مع دخوله في مجموعات النمر وتسلمه قيادة فوج "السحابات"، الذي رفعه نحو قدرات أكبر، إذ سيطر على أراضٍ واسعة مزروعة بالفستق الحلبي واستفاد من مواسمها، وعدة معابر لنقل الوقود بين المناطق المحررة ومناطق النظام. وبنى مهنا لنفسه موطئ قدم في عالم الاقتصاد من خلال مطاعم وفنادق وأراضٍ زراعية وشركات نقل. يحيط رجل الأعمال الجديد نفسه بعدد كبير من الحرس الشخصي الذي يقدر بحواليْ خمسين شخصاً. ويُقدر حجم مجموعته المسلحة بحوالي 2500 مقاتل على أقل التقديرات. ويمتلك مهنا أسطولاً من السيارات الفارهة، ويعيش حياة أبعد ما تكون عن حياة جندي على خطوط الجبهات وأقرب ما تكون لرجل أعمال.

9 علي مهنا عامل المغسلة الذي صار قائد فوج، عين المدينة، 16/10/2016: http://bit.ly/3nXg9Gt

ومن الأمثلة أيضاً رافد جروس، الذي كان يدير مستودعاً صغيراً للأدوية قبل 2011، ثم انخرط في تجارة المخدرات والمسدسات عبر الحدود مع لبنان، وبنى شراكات على طرفيَ الحدود[10]، وذلك عبر دخوله في أعمال وساطة وتسوية لعدد من المناطق في سورية، وشراكته معَ ضباط من الجيش والأمن.
كذلك وائل عقيل، اللاعب السابق في نادي الاتحاد الحلبي لكرة القدم ورئيس نادي الشرطة[11]. وائل ابن أسرة غنية نسبياً، وكان له نشاط بسيط في مجال العقارات قبل 2011، إلا أن تدخُّله في ملف وساطات في عدة مناطق سورية لإطلاق سراح معتقلين وإجراء تسويات ومصالحات في مناطق وقرى مختلفة أهّله لإقامة تجارة مع مناطق محاصَرة وشراء عقارات في أماكن امتلك معلومات أكبر عنها قبل غيره بسبب عمله، كما أن حصوله على جزء من الفِدى كجزء من عمليات الوساطة شكَّل له دخلاً إضافياً[12]، ليمتلك أسواقاً تجارية في قلب العاصمة دمشق، إضافة إلى شراكات في مجالات أخرى في حلب.
تعد الأسماء الأخيرة نماذج لمئات الحالات التي حققت ثروة خلال السنوات الثماني الأخيرة، ووضعت لنفسها موضع قدم في قطاع الأعمال في سورية، وبنت شبكاتها الخاصة من العلاقات، ليس بنفس طريقة أبناء المسؤولين الذين صعدوا مستفيدين من سلطة الآباء، بل من خلال استغلال كل الظروف الممكنة للصعود دون أن ينسوا أن المكسب الاقتصادي الذي حققوه يحتاج إلى قوة للحفاظ عليه. ففي حالة مهنا، أحاط نفسه بعسكريين من قوات النمر ذات الهيبة في الداخل السوري، وفي حالة جروس، رسخ علاقات وشراكات مع حزب الله تفتح أمامه الأبواب، وفي حالة وائل عقيل، بنى علاقات مع مسؤولين وضباط روس.
رجال الأعمال الجدد ليسوا رجال أعمال تقليديين يعتمدون على رؤوس أموالهم وثقة الناس بهم لتعزيز مكاسبهم، بل هم منظومة من أصحاب رؤوس الأموال المحمية بعلاقات اجتماعية ترتكز على القبيلة أو الأسرة أو الطائفة، وبعلاقات مع جهة قوية تضمن القدرة على حل المشاكل اليومية، سواء كانت جهاز أمن محلي أو ضباطًا روس أو إيرانيين، واستطاع هؤلاء الرجال تنويع استثماراتهم في السنوات السابقة وعدم حصرها بالنواة التي قامت عليها.
فمثلاً، طلال الدقاق، الذي تتشابه حالته كثيراً مع علي مهنا زميله في قوات النمر، بدأ يستثمر في شراء عقارات داخل مدينة حماة، إضافة إلى شراء عدة محطات وقود على الطرق الرئيسية، مع شراء بعض المطاعم في قلب مدينة حماة، إضافة إلى محلات ألبسة جاهزة في وسط المدينة[13]، مما يسهل عليه في حالة انتهاء مصدر التكسب الرئيسي أن يجد مصادر أخرى تضمن له البقاء في الواجهة.
ومن هؤلاء الأشخاص من برز أكثر من غيره على السطح؛ فحسام قاطرجي الذي تكسب من تجارة النفط والحبوب مع "داعش" هو أحد المنتمين لهذه الطبقة واستطاع الوصول إلى مجلس الشعب[14] ويحقق شهرة أوسع من غيره. كذلك أحمد درويش عضو مجلس الشعب السابق، فهو ابن هذه الطبقة، واستطاع أن يحقق ملايين الدولارات عن طريق تجارة المعابر.[15]
وكِلا الرجلين الأخيرين بدأ بعلاقة مع جهات إيرانية على الصعيدين الاقتصادي والعسكري لتعزيز حضورهما (راجع الجدول رقم 2). ونلاحظ أن المقربين من درويش وقاطرجي يعيشون حياة باذخة، ويركبون سيارات فارهة من طرازات حديثة، كما يمتلكون قصوراً أو فِللاً في قراهم الأصلية أو في محيط دمشق.
ويعرض الجدول رقم (2) أبرز المنتمين إلى هذه الطبقة.

10 اقتصاديات الحرب في سوريا، مركز جسور، 16/11/2018: http://bit.ly/2Kv5fJo
11 وائل عقيل يعود إلى الشرطة، مؤسسة الوحدة للنشر: https://bit.ly/3qQWIWA
12 كواليس مفاوضات مبعوث النظام مع أهالي الوعر، العربية نت، 15/9/2014: http://bit.ly/38sKk1u
13 حماة: طلال الدقاق من زعيم ميليشيا إلى "رجل أعمال"، المدن، 19/8/2018 : http://bit.ly/2KQUJMa
14 القاطرجي: كيف صار أولاد الخياط حيتاناً، جسر برس، 1/2/2019: https://bit.ly/3syo5jv
15 روسيا تخنق أحمد درويش وتفكك فوج المبارك التابع لإيران، مرصد مينا، 11/2/2019: https://bit.ly/39kY4wu

أبرز الشخصيات التي جمعت ثروتها بعد عام 2011

1 حسام قاطرجي

- نشاطه قبل عام 2011: عقارات
- محافظة المولد: حلب
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 150 مليوناً
- ملاحظات: أتت ثروته الرئيسية من تجارة النفط والحبوب بين مناطق داعش والنظام

2 فراس السلوم (الهدبة)

- نشاطه قبل عام 2011: عقارات
- محافظة المولد: حمص
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 50 مليوناً
- ملاحظات: قام نشاطه على جمع أموال المهجرين

3 وائل عقيل

- نشاطه قبل عام 2011: تجارة عامة
- محافظة المولد: حلب
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 100 مليوناً
- ملاحظات: أتت ثروته الرئيسية من عمليات وساطة معتقلين وإدخال مواد للمناطق المحاصرة

4 خضر علي طاهر

- نشاطه قبل عام 2011: غير معروف
- محافظة المولد: طرطوس
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 300 مليوناً
- ملاحظات: إدارة حواجز بين المناطق المختلفة والحصول على إتاوات

5 محي الدين المنفوش

- نشاطه قبل عام 2011: صناعة ألبان وأجبان
- محافظة المولد: ريف دمشق
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 100 مليوناً
- ملاحظات: أتت ثروته الرئيسية من عمليات تجارية بين مناطق المعارضة والنظام في دمشق وريفها

6 ياسر عزيز عباس

- نشاطه قبل عام 2011: لا يوجد نشاط
- محافظة المولد: طرطوس
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 200 مليوناً
- ملاحظات: أتت ثروته الرئيسية من عمليات توريد مشتريات عامة لحكومة النظام السوري

7 عامر خيتي

- نشاطه قبل عام 2011: غير معروف
- محافظة المولد: ريف دمشق
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية، مصر، تركيا
- رأس المال المتوقع: 40 مليوناً
- ملاحظات: شراء عقارات في مناطق محاصَرة

8 أحمد درويش

- نشاطه قبل عام 2011: لا يوجد نشاط تجاري
- محافظة المولد: حماة
- أبرز أنشطته تتركز في: سورية
- رأس المال المتوقع: 50 مليوناً
- ملاحظات: أتت ثروته الرئيسية من عمليات تهريب وتبادُل بضائع بين مناطق المعارضة والنظام

على الرغم من أن بعض الأسماء -الواردة أعلاه كأمثلة على هذه الطبقة- كان لها في الماضي عمل تجاري واضح وربما امتلكت قدراً ما من الأموال، إلا أنها بنت ثروة ضخمة مرتكزة على علاقات واضحة مع نظام الأسد في السنوات العشر الماضية، واستطاعت التقدم بفضل ظروف الحرب لتتبوأ منزلة سياسية؛ كما في حالة خيتي وقاطرجي كأعضاء في مجلس الشعب، إضافة لحياة رفاه وبذخ.
ورغم أن عامر خيتي يُعدّ رجل أعمال ناشئ، إلا أنه استفاد من ظروف الحرب بالشراكة مع مسؤولي النظام؛ فتملك عقارات عديدة وفخمة في محيط دمشق، مستغلاً خروج السكان الأصليين. كما امتلك علاقات عابرة للحدود، مستفيداً من قدرته على التحرك بجواز سفر سوداني.

03 الطبقة التقليدية.. تمدُّد في الخارج

لا شك أن أعمال الطبقة الغنية التقليدية التي بقيت في سورية أو تلك التي خرجت منها تأثرت بشكل عميق. ففي حلب، العاصمة الاقتصادية للبلاد، دُمرت معظم المعامل، وفي ريف دمشق، حيث تنتشر الصناعات التقليدية السورية، لحق المعاملَ دمارٌ كبيرٌ، كما دُمِّرت معظم المحال التجارية في أسواق قلب حمص. وكذلك الحال في أسواق المحافظات على الأطراف، حيث تضررت التجارة والزراعة في كل من درعا ودير الزور والرقة وبعض المناطق الأخرى. في المقابل، ظلت معظم الأسواق التجارية في دمشق تعمل في حدودها الدنيا، ونشأت أسواق جديدة، وازدهرت في الساحل السوري، خاصة في اللاذقية.
وعمدت الطبقة الغنية التقليدية إلى نقل جزء -وفي بعض الحالات كل- أعمالها لخارج سورية، فالبعض بدأ نشاطه في تركيا، والآخر في مصر، وبعضهم بدأ من جديد في بعض دول أوروبا، كما شكلت لبنان ودبي وغيرهما أماكن جذب مهمة لتلك الطبقة المتحالفة مع السلطة، والتي استطاعت الجمع بين أعمال لها خارج سورية وداخلها.
ونجد أن بعض أبناء هذه الطبقة فضل تنمية أعماله في ظل تعاوُن كامل مع النظام السوري، كما هو الحال بالنسبة لرجال الأعمال من أمثال سامر فوز ومحمد حمشو، فيما فضل آخرون الابتعاد عن المشهد السوري ليبدؤوا في مكان آخر، كما هو الحال بالنسبة لأبناء عماد غريواتي ومعظم التجار الحلبيين. وفضل البعض خلطة تجمع بين التوسع بأعماله خارج سورية والحفاظ على الحد الأدنى من النشاط الصناعي أو التجاري داخلها، كما هو الحال عند لبيب الأخوان، وطريف الأخرس، وعصام أنبوبا.
وفي جميع الأحوال، ظل لهؤلاء الأغنياء وأسرهم طقوسهم الخاصة وسلوكهم الذي اعتمد على زيادة مظاهر البذخ والتنقلات والرحلات وليس التقليل منها، خاصة أولئك الذين حافظوا على وجودهم داخل سورية، فيما يمكن تفسيره على أنه محاولة للهروب من الواقع المرير الذي تعيشه سورية، ومحاكاة نمط الحياة قبل 2011 على سبيل الحنين للماضي.

ثانياً: مزيد من الترف في مواجهة الضغوط

من الملاحظ أن عدد البارات والمراقص والمقاهي والمدن السياحية التي تم افتتاحها في المناطق الساحلية في السنوات العشر الماضية أكبر من تلك التي افتُتحت في حقب زمنية مماثلة قبل 2011. وكذلك يلاحظ أن مطاعم ومقاهي وبارات دمشق أصبحت تمتلئ في الأعياد والمناسبات، في محاولة لخلق نوع من الأجواء التي تخفف من الضغوط اليومية التي تتعرض لها الطبقات الغنية بشقيها الصاعد والتقليدي في إطار مكاني واحد، خلق أو يُتوقع أن يخلق بوتقة سلوكية واحدة، تجعل الجميع يتصرفون على نحو متشابه، بحكم تشابُه المكان والظروف، وليس بالضرورة تشابه مصدر الأموال أو البيئة التي نشأ فيها أصحابها.

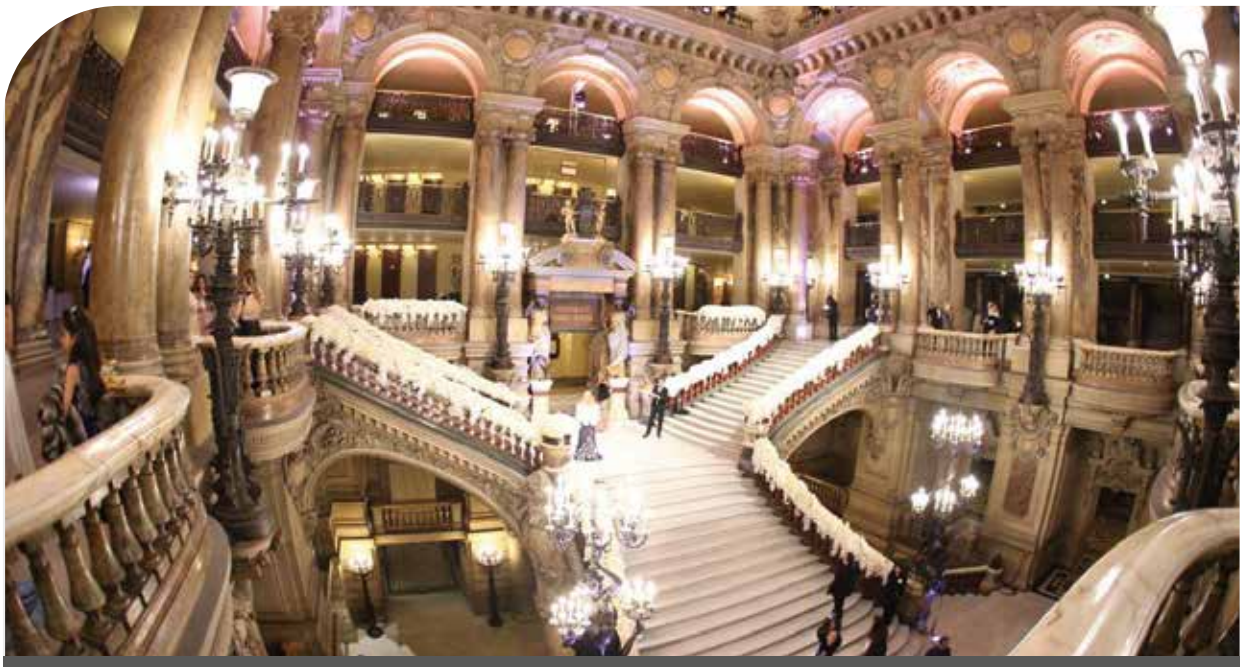

زفاف حفيدة عبدالحليم خدام

01 أعراس وحفلات باذخة

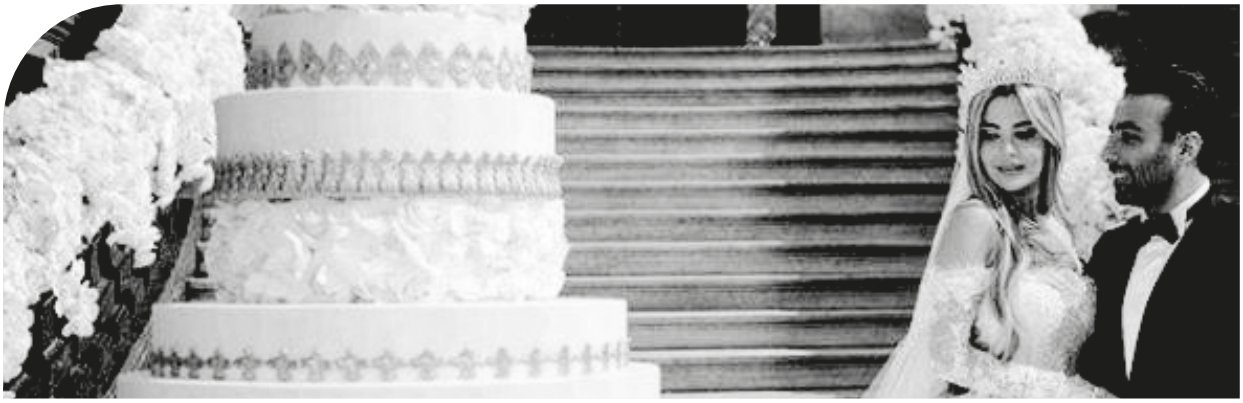

في صيف عام 2011، بعد مرور بضعة أشهر فقط على انطلاق الاحتجاجات الشعبية في سورية، أقيمت في أحد قصور إسبانيا حفلة زفاف حفيدة جميل الأسد على حفيد رفعت الأسد، أبناء عمومة رئيس النظام السوري بشار الأسد، في حفل دُعي له عدد كبير من أفراد العائلة والأصدقاء، وقدرت تكاليفه بمئات آلاف الدولارات.

وبعد بضعة سنوات، وبالتحديد في 2017، أقامت لارا جمال خدام، حفيدة عبد الحليم خدام، نائب حافظ الأسد المنشقّ عن النظام، حفل زفافها في قصر الأوبرا بباريس[16] على رجل الأعمال اللبناني منيف نعمة، وقدرت كلفة العرس وقتها ببضعة ملايين من الدولارات، حيث حضر العرس ضيوف من مختلف أنحاء العالم ومنحت للعروس هدايا بمئات آلاف الدولارات.

وفي سورية في نفس العام 2017، أقيم في فندق لاميرا باللاذقية حفل زفاف كريم جود، حفيد صبحي جود، رجل الأعمال الذي ظل محتكراً لعدة سلع أبرزها الموز والأجبان الأجنبية طيلة حكم الأسد الأب، على راما منزلجي، بكلفة يعتقد بأنها وصلت إلى مليار ليرة سورية (2 مليون دولار بأسعار 2017)[17]، حيث صمم فستان العروس أحد المصممين العالميين، واستدعي لإحياء الحفل المطرب محمد إسكندر، وتم تصميم الديكورات الخاصة بالحفل، ودُعي بعض الضيوف من دول أجنبية.

كذلك في عام 2019، أقيم حفل زفاف المذيعة في "قناة سما" سالي عزام، ابنة الدبلوماسي منصور فضل الله عزام، الذي يشغل منصب وزير دولة لشؤون القصر الجمهوري منذ 2008، وشغل قبلها مناصب دبلوماسية مختلفة بما في ذلك مسؤول الشؤون الثقافية في بعثة سورية للولايات المتحدة الأميركية في نهاية عهد الأسد الأب، على ابن سفير النظام السوري في الهند رياض عباس في منطقة يعفور بضواحي العاصمة دمشق. وقد حضر ضيوف من مختلف أنحاء العالم وشارك في الحفل الغنائي كل من الفنانة نوال الزغبي وربيع الأسمر وغيرهما من الفنانين، إضافة لفِرَق فنية من عدة دول أجنبية. وقد بدأ العرس بعزف النشيد السوري وانتهى بترديد شعارات "للوطن وقائده"[18]، وقدرت تكلفة العرس بأكثر من 2 مليون دولار أميركي.

16 حفل حفيدة عبد الحليم خدام، جريدة النهار، 13/11/2017: http://bit.ly/3nN522M
17 حفل زفاف أسطوري في سوريا، مصراوي، 25/7/2017: http://bit.ly/3pjiUSH
18 للمزيد حول عرس المذيعة سالي عزام، راجع العربية نت، http://bit.ly/37CBhfb

قبل ذلك في 2016، أقيم حفل بشرى الحسن، ابنة اللواء بسام الحسن، مدير مكتب بشار الأسد الحالي، على الشاب خالد الجراح، وهو ابن تاجر من أصل فلسطيني. وقد أقيم الحفل في القرية الشامية التي يمتلكها والد العريس نعيم الجراح، وقام بتصميم فستان العروس مصمم عالمي، واستدعي عدد من الشخصيات والفنانين للمشاركة في الحفل من خارج سورية، كما شارك عدد من كبار المسؤولين في الحفل، الذي قيل إنه وصل إلى كلفة مليون دولار على أقل تقدير[19].

كما أقامت عائلة الوزير عاطف النداف -وهو وزير التجارة وحماية المستهلك السابق في حكومة عادل خميس، وشغل قبلها منصب وزير التعليم ومحافظ إدلب والسويداء وطرطوس- حفل زفاف بتكلفة وصلت لأكثر من 200 ألف دولار أميركي، علماً أن العريس هو أحد أبناء صديق للوزير.

كذلك يفضل البعض أن يقيموا حفلاتهم وأعراسهم في مدن خارج سورية، كدبي أو عَمّان أو حتى القاهرة، كما هو الحال في عرس المليونير السوري باسل سماقية، الذي غادر سورية في ثمانينيات القرن الماضي ويمتلك استثمارات ضخمة في مصر، وهو صاحب لقب المصدّر رقم واحد للألبسة القطنية في مصر. أقام سماقية حفل زفافه على عروسه زينة وتار من حلب، وحضر العرس عدد كبير من فناني ودبلوماسيي مصر ولبنان كعمرو موسى وسفراء دول أجنبية، وتم توزيع حقائب هدايا تحوي ليرات ذهبية، وحضر الضيوف من مناطق مختلفة من العالم.

كذلك حفل زفاف ليلى حمادة على المليونير المصري هادي العمر، حيث أقامت حفلتَيْ زفاف في كل من بيروت والقاهرة، واستدعت صديقاتها وأسرتها من مختلف أنحاء العالم بما في ذلك سورية. ورغم الظروف الصعبة، نجد أن حفلة الزفاف التي تُقام تحت عنوان "مرّةً بالعمر" لا يمكن لأبناء الطبقة الميسورة تجنُّب البذخ فيها، سواء أكانوا من الطبقة التقليدية أم الطبقة التي أثرت حديثاً، ولا تزال بعض الأسر تتباهى بأعراسها أمام الأسر الأخرى في إطار جوّ اجتماعيّ تقليديّ سائد.

كما أن الحفلات الأخرى كأعياد الميلاد وحفلات رأس السنة لا تزال تُقام بشكل مُلفِت في سورية في إطار الهروب من الضغوط، خاصة بين جيل الشباب. ورغم أن حفلة رأس السنة 2020-2021 أُلغيت لظروف انتشار وباء كورونا، فقد صنع فندق "الفور سيزونز" -الذي اشتراه سامر فوز من الأمير الوليد بن طلال- تمثالاً لبابا نويل من 350 كيلو من الشوكولا الفاخرة، ووضعه في بهو الفندق.

19 زفاف "خيالي" لابن تاجر دمشقي، عنب بلدي، 16/10/2016: https://bit.ly/3rwzleM

02 مقتنيات ورحلات مُترَفة

تُعتبر أسماء الأسد زوجة رئيس النظام السوري إحدى أبرز الشخصيات اللاتي اشتهرن بالمشتريات الباذخة، حيث اشترت مطلع 2012 مفروشات بقيمة نصف مليون دولار[20] في الوقت الذي كانت مناطق مختلفة من سورية تُقصف بشدة. كما ظهرت أسماء في مناسبات متعددة بأحذية وحقائب فاخرة تقدر قيمة الواحدة منها بقرابة خمسة آلاف دولار أميركي.

ويرجع الفضل لأسماء الأسد بتوفير هواتف شركة آبل من طراز "آيفون 12" منذ ظهورها منتصف تشرين الأول/ أكتوبر 2020 وحتى قبل توفرها في بعض دول الجوار، حيث يتوفر الهاتف ابتداءً من 6 ملايين ليرة ويلاقي إقبالاً واسعاً من أبناء طبقة المسؤولين والقيادات العسكرية وبعض الأغنياء التقليديين. كما سلطت إحدى الصحف الروسية الضوء على أنباء تناقلها مستخدمو وسائل التواصل الاجتماعي تفيد بأن الأسد اشترى لزوجته لوحة بقيمة 30 مليون دولار وأهداها إياها[21]. ورغم أن هذه الأنباء لم تُوثّق، فقد تزامنت مع مراحل متقدمة من الأزمة الاقتصادية والمعيشية وعجز واضح لدى النظام في تأمين السيولة وكبح التضخم.

وتعتبر شهرزاد الجعفري -صديقة بشار الأسد وابنة بشار الجعفري نائب وزير الخارجية في حكومة الأسد وممثله لسنوات طويلة في الأمم المتحدة- إحدى محبات الحفلات والرحلات بشكل ملفت للنظر، وحظيت ببعض رحلاتها باستخدام نفوذ والدها. ويدل نمط حياة شهرزاد على أن لها من اسمها نصيباً، فهي تحب مصاحبة الملوك والطبقة الثرية كما في حكايات شهرزاد الشعبية، وأجرت عدة عمليات تجميل باهظة الثمن، إضافة لألبستها المكلفة. وقد ظهرت شهرزاد في حفلات ومناسبات متعددة بشكل ملفت أكثر من أختها يارا التي ظهرت لمرة واحدة على الإعلام في حفل زفافها على الممثل السوري مصطفى الخاني أواخر عام 2014.

20 "ويكيليكس": أسماء الأسد اشترت أثاثاً بـ 440 ألف دولار، الأنباء الكويتية، 17/7/2012: http://bit.ly/3pe247A
21 الأسد يهدي زوجته لوحة بـ 30 مليون دولار، سوريا 24، 17/4/2020: https://bit.ly/31x5ats

كذلك، تعتبر فلك الأسد، ابنة عمّ بشار جميل الأسد، وأسرتها من محبات السفر والترفيه بشكل دائم، حيث تقضي الأسرة عطل نهاية الأسبوع في بيروت أو دبي أو القاهرة، وأحياناً في بعض دول أوروبا بما فيها تركيا التي زارتها الأسرة منتصف 222020. ويتيح جواز السفر الدبلوماسي الليبي للأسرة حرية التنقل، حيث حصلت عليه فلك من زواجها من ابن عم العقيد معمر القذافي أحمد قذاف الدم بعد طلاقها من قصي أصلان قريب اللواء علي أصلان رئيس أركان الجيش في فترة في حكم الأسد الأب. وتقدر نفقات فلك وأسرتها الشهرية بما لا يقل عن خمسين ألف دولار أميركي، وذلك في الظروف الطبيعية، دون احتساب كلفة الحفلات الفخمة والولائم التي تدعو إليها صديقاتها وقريباتها.

ومن أبرز الشباب المشهورين برحلاتهم الفارهة إلى أوروبا وبلدان المنطقة علي نمير مخلوف، وباسل كامل مخلوف، وكذلك حمزة بن حافظ مخلوف وجاد أحمد مخلوف، وكلهم من أسرة عائلة أنيسة زوجة الأسد الأب ووالدة الأسد الابن. ويشارك هؤلاء على نحو دائم صوراً لهم في رحلات شاطئية وحفلات فاخرة، في محاكاة لما يقوم به قريبهم علي بن رامي مخلوف في شواطئ دبي وبعض الشواطئ الأوروبية23، حيث أقام الأخير مع أخيه محمد حفلة في أحد شواطئ اليونان كلفت عشرات آلاف الدولارات.

ورغم أن أبناء بشار الأسد قضوا عطلتهم في روسيا، إلا أن الزيارة تحمل طابعاً سياسياً، حيث يُعتقد أن الأبناء قضوا عطلتهم في أحد معسكرات مدينة القرم ليكون نوعاً من التدريب رغم ظهورهم في شوارع موسكو وهم يمارسون نشاطاً سياحياً، وهي الرحلة التي لاقت انتقادات من مؤيدي النظام، نتيجة ما تمر به سورية من أوضاع اقتصادية صعبة للغاية24.

وفي إطار الحفلات التقليدية، تُعتبر البارات التي نشطت بقوة بعد 2011 مكاناً لتنفيس احتقان الطبقة الغنية، خاصة ممن فقَدَ قدرته على التحرك خارج سورية لأسباب تتعلق بالرقابة وقيود السفر المفروضة عليه بسبب وضعه، كأبناء كبار المسؤولين والقياديين في ميليشيات موالية للأسد. فحيدرة الأسد -مثلاً- افتتح مقهى خاصاً به على أوتوستراد المزة في دمشق، ويُعَدّ المقهى بالدرجة الأولى مكاناً لإقامة سهراته مع أصحابه، أكثر منه مكان عمل. كما عمد وسيم الأسد للسيطرة على عدة مقاهٍ في الساحل السوري ووضعها في خدمته وخدمة أصدقائه للترويج عن أنفسهم.

22 ابنة بشار الأسد ليست في تركيا.. بل قريبتها، المدن، 23/8/2020: https://bit.ly/39lSie4
23 راجع حساب علي مخلوف على إنستغرام: https://www.instagram.com/ali_r_makhlouf/?hl=tr
24 أولاد "بشار الأسد" الثلاثة في معسكر روسي، عربي بوست، 17/4/2018: http://bit.ly/38Xh7vY

ثالثاً: أثر الحرب على عقارات الأثرياء وسياراتهم

01 العقارات: تحوُّلات تواكب الانزياح الطبقي

تشهد سورية اليوم حالة حرب وتوتُّر دائمين، مما يجعل التقدم نحو شراء أي عقار أمراً محفوفاً بالمخاطر. يضاف إلى ذلك أن عدد الأسر التي تقطن سورية تقلّ عن عدد المنازل المتوفرة للبيع، مما يجعل المعروض أكبر بكثير من الطلب، ولكن مع هذا كله نجد أن أسعار المنازل والعقارات في ارتفاع مستمر بشكل عامّ، خاصة في المدن الكبرى كدمشق وحلب وحمص واللاذقية. وربما يكون من أسباب ذلك ارتفاع كلف البناء إثر غلاء مواده من مستوردات الحديد والأسمنت وغيرها.

ولكن هذا السبب يبقى غير كافٍ لتفسير كيف وصل سعر المتر في عقارات دمشق إلى أكثر من مليون ليرة أواخر 2020 في مناطق الطبقة المتوسطة! وفي بعض الحالات أكثر من مليونين للمتر الواحد. ويبدو أن السبب الرئيس هو أن هناك مَن يشتري من خارج البلد كما هو الحال بالنسبة للتجار من إيران ولبنان والعراق، الذين أثبتوا وجوداً حقيقياً في الأسواق العقارية السورية خلال السنوات الماضية.

وقد فضل أفراد الطبقة الغنية التقليدية في سورية الاحتفاظ بعقاراتهم حتى وإن كان بعضهم قد غادر سورية، مؤتمِنين وكلاء على منازلهم، غالبيتهم من موظفي الشركات السابقين أو الأقرباء. هذا الأمر أدى لإحلال سكان جدد محسوبين على الطبقة المتوسطة في أماكن محسوبة على الطبقة الغنية؛ في إطار ظاهرة انزياح طبقي شهدتها سورية على مر العقد الفائت.

وحاول أفراد الطبقة الجديدة الذين سكنوا في أماكن لم يسكنوها من قبل أن يحاكوا سلوك الطبقة الغنية في المظهر والسلوك ونمط الشراء، إلا أن الدخل لم يسمح بذلك، مما اضطرهم للاعتماد على مصادر إعانة خارجية من أقربائهم في الخارج أو حتى من مساعدات الأغنياء الذين يرسلون مبالغ لهم للحفاظ على ممتلكاتهم، أو لمساندتهم في مواجهة ظروف المعيشة الصعبة. من حيث النتيجة، تمكنت الطبقة المتوسطة التي حلت مكان أجزاء واسعة من الطبقة الغنية في سورية من محاكاة الأخيرة في الإنفاق الاستهلاكي وأسلوب العيش، ولم تتجاوز ذلك إلى مساحات الاستثمار والتملك.

وهناك طبقة أخرى أيضاً ظهرت في مكان لم تعرفه سابقاً، وهي طبقة القيادات العسكرية والميليشيات والتجار الذين أثروا في زمن الحرب. فمنهم مَن استحل السكن في بيوت الطبقة الغنية بدون أي إذن، متذرعين بكون أصحاب المنازل قد هجروها خارج سورية، أو بكونهم من المعارضين. وبعضهم تملك المنزل الذي سكنه بعد بيعه بمبلغ بخس من قِبل أصحابه الأصليين، نتيجة إفلاسهم أو رغبتهم بالانتقال خارج سورية.

كما عمل البعض أصالة عن نفسه أو لصالح غيره بأسواق العقار في سبيل تملُّك العقارات أو المتاجرة بها، وهؤلاء حققوا مكاسب جيدة ووجدوا في العقار فرصة أكثر أماناً للاستثمار، واستطاعوا الانتقال إلى مستويات جديدة من الثراء.

أما المسؤولون والمحميون من قِبل النظام، فقد سكنوا في مناطق خاصة، كمنطقة "يعفور" المحمية بشكل كبير، والتي يقطنها كبار الضباط وبعض الأثرياء من الطبقات الغنية التقليدية الذين لم يغادروا في البلد، أو من الذين تركوا عقارات لهم فيها للمستقبل. وتبدأ أسعار المنازل في "يعفور" للفيلا الصغيرة من 3 ملايين دولار أميركي، وبمتوسط يصل إلى 5 ملايين دولار أميركي، وبعضها يصل إلى 10 ملايين دولار، بينما تبدأ أسعار شقق المناطق المحسوبة على الطبقة الغنية في دمشق كالجسر الأبيض والمالكي وأبو رمانة عند حدود 200 ألف دولار للشقة، وبمتوسط يصل إلى 300 ألف دولار وصولاً إلى مليون دولار. وفي اللاذقية نجد أن أسعار الشقق في مناطق الطبقة الثرية كحي الأمريكان مثلاً متوفرة بأسعار تبدأ عند 75 ألف دولار وتتجه نحو 120 ألف بالمتوسط، وبعضها يصل إلى 250 ألف دولار.

وتعد محافظتا اللاذقية وطرطوس أرخص من غيرهما من حيث الأسعار، ويتمتع فيهما الأغنياء بحماية أكبر، لكون المنطقة تعجّ بعشرات المجموعات الأمنية، إلا أن هذه المجموعات نفسها متهمة بعمليات سرقة وخطف.

02 السيارات: ازدهار استثنائي

لسنوات طويلة، اعتبرت السيارة في سورية حلماً، واقتصر امتلاك السيارات الحديثة على طبقة المسؤولين في الحكومة والقطاع الأمني، ثم اشترت وزارة الدفاع آلاف السيارات عن طريق رجل الأعمال رامي مخلوف وزوَّدت بها كبار الضباط بإمكانية تقسيط ميسرة، لتنتشر سيارات "بي إم دبليو" الحديثة في شوارع سورية، في مشهد جديد ملفِت.

وبعد الانفتاح الاقتصادي على العالم، استطاع التجار والطبقة السورية الميسورة اقتناء سيارات حديثة، كجزء من التعبير عن مكانتهم الاجتماعية، ولم تستطع الطبقة المتوسطة اقتناء سيارات بالقدر المعروف في دول أخرى قريبة، ولكن صغار الميسورين وجزءاً صغيراً من أبناء الطبقة المتوسطة اشتروا بالاعتماد على النظام البنكي سيارات الفئة المتوسطة والسيارات الرخيصة الصينية التي انتشرت في سورية.

تعد سيارات شركة "هيونداي" -التي تستوردها شركة "زينة التجارية" العائدة لسيدة الأعمال زينة ألتون ابنة رجل الأعمال سليم ألتون المولود في فنزويلا- السيارات الأكثر طلباً في السوق السورية، وذلك لرخص أسعارها وجودتها وتوفر موديلات متعددة منها.
ومؤخراً، تعاقد سامر فوز عَبْر "إعمار سورية" مع وكالة لتوريد قطع سيارة "كيا" لتجميعها في المدينة الصناعية بحسياء. وكِلا السيارتين مصدرهما كوريا الجنوبية، ولا تُعدَّان من فئة السيارات الفارهة.

كما تنتشر في سورية سيارات متعددة أخرى أغلبها يعود لموديلات قديمة نسبياً من مختلف العلامات التجارية، وذلك يعود لمنع استيراد السيارات الحديثة المفروض منذ أواخر 2015 بقرار حكومي، ولكن نجد على جانب آخر عدداً من السيارات الحديثة والفارهة تسير في شوارع دمشق واللاذقية بكثرة، حيث شوهدت إحدى ناقلات السيارات على طريق طرطوس الدولي تحمل سيارات "لامبرجيني" 2019 التي وصل سعر الواحدة منها إلى 250 ألف دولار أميركي. وفي عام 2020 نجد أن بعض السيارات التي عُرِضت للبيع في سورية على النحو التالي:

• كاديلاك إسكاليد موديل 2018 بسعر 150 ألف دولار أميركي.
• مرسيدس Gle جديدة بسعر وصل إلى 100 ألف دولار أميركي.
• سيارات رانج ولاند روفر حديثة الصنع بأسعار تبدأ من 50 ألف دولار أميركي وبعدد مفتوح.
• شفروليت كمارو موديل 2020 بسعر يقارب 50 ألف دولار أميركي، بِيعَت في المنطقة الحرة بدمشق وتم بيع أكثر من سيارة.
• سيارات بي إم دبليو إكس6 بعدد مفتوح وبسعر يصل إلى أكثر من سبعين ألف دولار أميركي للسيارة.
• سيارات بي إم دبليو ولاند روفر الجبلية من موديلات حديثة بأسعار تبدأ من 60 ألف دولار للسيارة وبكميات غير محدودة.

وفي نهاية عام 2020 باعت "السورية للتجارة" -الواجهة التجارية لحكومة النظام السوري- سيارات مختلفة الموديلات، بعضها حديث من طراز 2019 رغم قرار منع الاستيراد.

وتنتشر في شوارع اللاذقية سيارات حديثة بعضها بِنِمَر لبنانية وبعضها الآخر بِنِمَر سورية، حيث إن بعض السيارات المرصودة في شوارع اللاذقية تشمل سيارة "فيراري" حمراء تحمل نمرة اللاذقية برقم (600000) يقدر سعرها بثلاثمئة ألف دولار على أقل تقدير، وسيارة لكزس 2020 بيضاء تحمل نمرة اللاذقية برقم (000005) يقدر سعرها بحوالي 150 ألف دولار أميركي. كذلك يوجد أكثر من سيارة من نوع "تويوتا راف هايبرد"، موديل 2019 و2020 بأسعار تبدأ عند 40 ألف دولار، أشهرها أسطول السيارات من هذا النوع الذي تم رصده في طرطوس وأحد سياراته بيضاء تحمل النمرة (666048). وفي دمشق، نلاحظ مجموعة كبيرة من السيارات الحديثة من أنواع مختلفة، وكأمثلة عليها نجد السيارة من نوع "كاديلاك إسكاليد" 2020 سوداء تحمل نمرة دمشق برقم (640066)، إضافة لسيارات دفع رباعي حديثة من طرازات "بي إم دبليو" و"جي إم سي" و"تويوتا" وغيرها تسير برفقة مسؤولين حكوميين أو قيادات في مجموعات عسكرية. ورغم وجود عدد ملحوظ من سيارات مرسيدس إلا أنه من الملاحظ أن أغلبها من طرازات قديمة نسبياً، ولكن بعضها يُعرض للبيع بشكل دوري وبأسعار لا تقل عن 40 ألف دولار أميركي للنظيفة منها والحديثة نسبياً، وأبرز هذه السيارات سيارة مرسيدس بيضاء تحمل نمرة دمشق (000804)، وحمراء تحمل الرقم (000080).

وبالعموم، يمتلك المسؤولون والقيادات العسكرية وأبناء المسؤولين والطبقة التي تستطيع حماية نفسها سيارات فخمة نسبياً، فيما يفضل بعض المقتدرين مالياً من السوريين أن يركبوا سيارات عادية وجيدة وغير مُلفتة، نظراً لكون حالات السرقة والخطف في ازدياد مستمر، مُتجنِّبين أن يكونوا هدفاً لأي جهة، أو محلَّ تنافُس مع أي أحد.

خـــاتمة

أثّرت سنوات الحرب بشكل كبير في خريطة الطبقات الثرية في سورية، حيث أدت إلى نشوء طبقات جديدة بالكلية مستفيدة من اقتصاد الحرب، ورفعت بعض الشرائح من الطبقة المتوسطة إلى مستويات قريبة من الطبقة الثرية، مستفيدة من علاقتها بأصحاب رؤوس الأموال الذين فضَّلوا المغادرة وائتمان موظفيهم أو بعض أقاربهم على أموالهم، فيما هبطت الحرب ببعض أفراد الطبقات التي كانت قائمة في السابق، وصعدت بآخرين، وذلك بناء على مدى فاعليتهم بالنسبة للنظام واستمرار صلاحية استخدامهم من انتهائها.

وكنتائج موازية للانْزِياحات الطبقية التي شهدتها سورية خلال العقد الأخير، اضمحلت الطبقة المتوسطة أو تكاد، وازداد الفقراء فقراً، حيث أصبح حوالي 80% من السوريين يعيشون تحت خط الفقر[25]. ويُعتقد أن تدهور سعر الليرة والتضخم الذي سبَّبته في سورية منذ نهاية عام 2020 وحتى الآن ساهم في زيادة فقر الفقراء، وفي توسع نسبتهم في المجتمع السوري.

25 Human Rights Watch, Syria: events of 2020: https://bit.ly/3egjfBz

جسور للدراسات
JUSOOR FOR STUDIES
WWW.JUSOOR.CO

خالد تركاوي
أيار/ مايو 2021